

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وبه نستعين

مقدمة

ما أحوجنا اليوم إلى الاهتمام بالإنسان، والعناية بذاته وقدراته ومعرفة نفسه، وطبيعة جسده، وتهذيب خلقه وترقيه وجدده، وحسنه، وتنقية قلبه وعقله، أى ما أحوجنا إلى الفلسفات الإنسانية التى عنت بالنفس الإنسانية وأخلاقها وأحوالها ووصفت أمراضها وآفاتنا واهتمت بإصلاحها وعلاجها.

حقا ما أحوجنا لذلك كله إذا ما أردنا أن نصحح مسارنا ونعوض ما فاتنا ونلحق بغيرنا ممن سبقنا لأن الإنسان كان ولا يزال هو محور هذا العالم، ومركز هذا الكون، فبجهد يتقدم العالم وبأخلاقه يزدهر ويتحضر التاريخ.

والمتتبع لحضارات العالم منذ فجر التاريخ يعرف أن الاهتمام بالإنسان، والفلسفات الإنسانية كان دائما هو المصدر الحقيقى لكل علم وتطور وحضارة.

وقد قال سقراط قديما: «اعرف نفسك بنفسك» فكانت البداية، ثم فاضت بعد ذلك فلسفة أفلاطون بالعناية بالنفس التى تجاهد من أجل الارتقاء من العالم المحسوس إلى عالم المثل والخير، كذلك ذهب أرسطو إلى القول بأن معرفة النفس إنما تعين على معرفة الحقيقة الكاملة، ويرى كذلك أن كل معرفة هى شئ حسن جليل ولكننا نؤثر معرفة على أخرى إما لدقتها وإما لأنها تبحث عن الأشرف والأكرم، ولهذا كانت معرفة النفس ودراستها جدية بأن ترتفع إلى المرتبة الأولى.

وكذلك نجد الفكر الإسلامى قد عنى بالنفس ودراستها عناية كبرى وظهرت فيه دراسات نفسية إنسانية على أيدي كثير من المفكرين والفلاسفة المسلمين؛ كالكندى والفارابى وابن سينا وابن حزم وابن ملكا والغزالي وابن باجه وابن رشد

وابن القيم، ومن الأطباء قسطا بن لوقا وأبى بكر الرازى كل هؤلاء أدركوا أهمية دراسة النفس الإنسانية؛ لأن البحث فى النفس كان لديهم من أهم المسائل، وكان علمها أشرف العلوم الفلسفية ولا يمكن أن تدرس المواضيع الفلسفية إلا إذا ابتدأ الباحث بدراسة طبيعة النفس، ذكر ذلك أبو حيان فى كتابيه الإمتاع والمؤانسة والمقابسات، وأكد أن وجود النفس كان من أهم الموضوعات التى يطرقها أصحاب الفلسفة فى ذلك الوقت فى متدياتهم.

وكذلك نجد الإمام ابن حزم يؤكد عناية الفلسفة الإسلامية بالنفس فى قوله: «إن الفلسفة على الحقيقة إنما معناها وثمرتها والغرض المقصود بتعلمها ليس شيئا غير إصلاح النفس بأن تستعمل فى دنياها الفضائل وحسن السيرة المؤدية إلى سلامتها فى المعاد، وحسن السياسة للمنزل والرعية، وهذا نفسه لا غيره هو الغرض من الشريعة، هذا ما لا خلاف فيه بين أحد من العلماء بالفلسفة ولا بين أحد من العلماء بالشريعة».

وكذلك حرص الفيلسوف ابن باجه على دراسة النفس ومعرفتها فقال: «إن من لا يثق بأنه يعرف حال نفسه فهو أخلق أن لا يوثق به فى معرفة غيره، وكيف يقف على معرفة غيره وعلى معرفة مبادئ العلوم إذا لم يكن قد وقف من قبل على معرفة نفسه وعلم ما هى».

فالفلسفة وجميع الأديان إنما نبهت الأذهان إلى عظمة الإنسان وضرورة معرفة نفسه وطبيعة جسده وسمات خلقه وقدرات عقله وعلمه؛ لأن الإنسان بما وهبه الله من قوى وإمكانات متوازية على أحسن ما يكون قد ألقى نفسه أسمى من الطبيعة يسخرها ويوجهها حسبما يشاء وكيفما يريد؛ ولهذا قدر له أن يكون سيدها على مر الزمان، فهو فى كل مكان شارك فى أعظم الإنجازات وحقق أكبر الانتصارات واستطاع أن يكيف نفسه ومصير العالم من حوله.

والواقع أن ذلك ليس أمرا عسيرا بالنسبة للإنسان لأنه أعظم مخلوق فى الوجود أوره الله الخلافة فى الأرض وأعد له حمل الأمانة التى أشفقت من حملها السموات والأرض والجيال... ولعل ذلك يوضح لنا سر عظمته ويظهر مقدار مكانته.

ولذلك كان من الواجب علينا الاهتمام بالإنسان ودراسته لمعرفة وفهمه والعناية بقدراته وملكاته وتوجيه سلوكه وتهذيب خلقه وترقية حسه وتنقية قلبه، وإن كان ذلك ليس أمراً هيناً سهلاً لأن معرفة الإنسان وطبيعته من أصعب الموضوعات، احتار فيها الفلاسفة والمفكرون جميعاً، ومع ذلك حاول كل منهم أن يقدم تعريفه وأن يوضح مفهومه، وقد أكد ابن حزم ذلك فى قوله: «ليس الفلاسفة كلهم قد قالوا: صلاح العالم بشيئين أحدهما باطن، والآخر ظاهر. فالباطن هو استعمال النفس للشرائع الزاجرة عن تظالم الناس وعن القبائح، والظاهر هو التحصين بالأسوار واتخاذ السلاح لدفع العدو الذى يريد ظلم الناس والإفساد».

فابن حزم يرى أن الحياة لا تستقيم إلا إذا استقامت النفس وبراّت من أدرانها وأمراضها؛ ولذلك كانت له عناية بها وبأخلاقها وحبها فدرس النفس والأخلاق والحب بعناية وجهد، وقد رأى أن الحب عاطفة أخلاقية، ودواء ناجع لعلاج النفوس البشرية عليها تهدأ وترقى، وتآلف وترضى، وتحقق السعادة لذاتها ولمن حولها.

هذه بالطبع غاية طموحة، وآمال كبيرة مطلوبة، ولكنها على أى حال محاولة من جانبى عليها تسهم فى خدمة الإنسان بما يتلوهها من عناية واهتمام بالدراسات الإنسانية بوجه عام، لأن الإنسان أحوج ما يكون أن يعرف نفسه، وأن من عرف نفسه فقد عرف ربه. وعرف العالم من حوله.

ولاشك أن الصورة التى يقدمها لنا الفلاسفة للإنسان إنما هى فى الواقع تعبير عن روح العصر واحتياجاته ومشاكله ومتطلباته، ومع ذلك هو الإنسان فى كل زمان ومكان الذى يملك وضوح البصيرة وقوة الخدس وحب الحقيقة والله الموفق والمعين لصراط مستقيم.

سهير فضل الله أبو وافية